الباب الثانى عشر

حين يكون العجز طريقا

المقال الأول
هل عجزنا عن الكلام فعجزنا عن التصرف؟

الكلمة واللفظة والجارح منها:

إن ما يشغل المرء فى حياته وسيظل حتى آخر يوم فى حياته هو ما يتعلمه من الآخرين أو ما يُعلمه للآخرين، وإن مدخلات الحياة للإنسان تعتمد على ما أنعم الله عليه من النعم، وأول ما قد يلفت النظر فى آيتين:

{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» - إبراهيم: ٣٤، **{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}**. - النحل: ١٨.

وهذا قد يكون ملفتا للنظر نهاية الآيتين ولكن القدامى يضربون لنا مثالاً **{وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها}**. وردت مرتين كل مرة بخاتمة الآية الواردة فى سورة النحل: **{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}**. هى فى بيان صفات الله فختمها بقوله: **{إن الله لغفور رحيم}**.

أما الثانية ففى بيان صفات الإنسان وجحوده فلما كانت فى بيان صفات الإنسان وجحوده ختمها: **{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}**. (٣٤) **إبراهيم**، النعم لا تحصى لكن الإنسان ظلوم كفار مع أن نِعَم الله متتالية عليه ومتتابعة، لكنه ظلوم كفار.

السياق هكذا واحدة فى صفات الله وواحدة فى صفات الإنسان فلا يصح أن تؤخذ الآية مقتطعة من سياقها. حتى فى حياتنا اليومية نذكر أمراً لكن الغرض من ذكره يختلف.

ويجرنا ما ذكر على أهمية الكلمة والمدلول والدال فى سياق الجملة، فللكلمة مفهوم، وللكلمة ثغرات، ويجب ألا يكون هناك خلط بينها أو عدم وضوح فى تنظير الكلمة.

والكلمة إذا قرئت بالعين فقد صارت كلمة منظورة أو تطالع بالعين أو بما يعرف بالقراءة المنظورة أو كما تعودنا (اقرأ فى سرك أو بعينيك – وما لها من عبارة قد أثرت سلبا علينا من وجهة نظرى) وهى التى لا يتفاعل معها إلا من يقرأها فقط، أما إذا نطقت فصارت لفظة، وكل لفظة لها مدرك ومدلول يدل عليها فى سياق وهذا المدرك لا بد له من إدراك حقيقى ومفهوم فى التركيبة للناطق فيصل به إلى استدراك ما فى السياق وأن خروج الاستدراك فى السياق عن الإدراك الفعلى يؤدى إلى الاستدراج، وان الاستدراج لا يأتى إلا لمن لا يعلم حقيقة الأمر فى سياق ومفهوم اللغة.

المقال الثانى
لم أتعلم كثيرا من الصبر

إنه الغائب عن كثير، إنه المغيب داخل أنفسنا، لم نتعلم الكثير عنه، وكعادتى، حين ازداد فى معرفة الأمر، وصلت للمقولة الدائمة عندى، كلما علمت ، علمت أنى أجهل، حقيقة مؤكدة، نعم لم نتعلم الصبر، فما هو الصبر، أول ما يلفت نظرى فى قضية الصبر أتعجب من نفسى أولا قبل أى شيء، وأسال كم مرة نقرأ فى كتاب الله، مرات كثيرة، فهل نقرأ لنتدبر، أم نقرأ لنهرول؟ هل أصيب الإنسان بالعمى القرائى؟ (عدم القُدْرة على القِراءة الناتج عن إصابات فى الدِّماغ)، أكاد أجزم أننا فقدنا الكثير، من الفهم والقدرة على إدراك الكثير، وحين أتذكر الصبر أتذكر الآية الكريمة {**وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ(٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)**}.(العصر: ١-٣) ففى هذه الآية استثناء من الخسارة لمن، لطائفة مميزة، وكلمة تواصوا تعنى، أى أوصى بعضهم بعضا، تواصوا بالحق وهو الإيمان، وتواصوا بالصبر أى بالصبر على المصاعب والأقدار، والبعد عن المعاصى، والصبر أيضا ذكر فى سورة البلد آية ١٧، {**وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِوَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**}.

فما هو الصبر إذن، الصَّبْرُ نقيض الجَزَع، صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا فهو صابِرٌ وصَبَّار وصَبِيرٌ وصَبُور والأُنثى صَبُور أَيضًا بغير هاء وجمعه صُبُرٌ.وأَصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَس شيئًا فقد صَبَرَه، والصبر هو حبس النفس عن الجزع .

والصبر هو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط و الشكاية لأقداره، إن الصبر يمكن القول إنه يعنى حبس النفس على ما يقتضيه العقل و الشرع، وقد قيل فى الصبر أيضا ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله.

دعونا نجرى فى أروقة الصبر، للصبر أنواع فهناك صبر بالله كما قال تعالى {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ}. (النحل: ١٢٧)

هذا هو صبر الاستعانة بالله وانه المصير، وإن صبر العبد هو بربه لا بنفسه، كما يبدو فى الآية، وهناك أيضا الصبر لله والباعث فى ذلك محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لكى نظهر قوة النفس، وهناك صبر مع الله وهو صبر فى دوران العبد مع مراد الله فى تعاليمه وأحكامه.

إن الصبر أقسام أولها هو الصبر على امتثال أوامر الله، صبر الطاعة والامتثال للفروض {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}. (الزمر: ١٠)، وإن من قل صبره فى صبر الطاعة والامتثال ليس له من حظ من بر ولا من نصيب فى صلاح، وإن الصبر على ما فات إدراكه من أمانى جعلته كمن لا يخطر على بالك فلم تقله، فإن الصبر عنها يعقب السلو منها، والسلو يعنى الهجران والنسيان:

أهجر أمانيك فى صبر

تنل فى الدنيا مسرات وملذات

وان تمنيت من غير صبر

كمن أوغر شوكة فى حلقه اللذات

إن الصبر امتثال فى أوامر

فمن خالف أضاع حكمة الطاعات

يا نادب الحظ من قلة الصبر

اعلم بأن الدنيا نصيب لنا بذات

وسلو الأمانى من صبر تمنيت

تلك الأمانى فى كتاب ما يغادر الصفحات

فالصبر على ما فات لا تبكينه

فبكل غد نعمة فاحمد ربك تفز بلذات

فالصبر مأجور به فلا تنسينه

فإن جزعت من ألم فعند ربك المسرات

الحيرة فى البشر كيف تنتاب

والخير فى الصبر إليك آت

فلا تجزع من مصيبة ولا تطمع فى دنيا

فالصبر بالله ضياء فى الظلمات

إن من قل صبره اشتد جزعه وتكالب عليه همه وأصبح فريسة غمة، فقد قال الله تعالى: **{وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}. لقمان: ١٧**

لقد آمنت يقينا أن كل مشاكلنا وما يحدث حولنا، سواء له أسبابه، إنما ترتبط وتعزى إلى ضعف العقيدة الإيمانية داخل البشرية، إنها العقيدة التى يجب أن يُصَدّقَ بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك. إنها عقيدة الإنسان يعقد عليه قلبه، **{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ}. المائدة: ٨٩.**

ودعونا الآن نأخذ أنفسنا فى فسحة داخل أنفسنا وحولنا لنرى كيف نصبر وما هى الوسائل المعينة على الصبر، أول علامات الصبر على الطاعة، الابتعاد عن قبح المعاصى، وأن الله حرمها صيانة وحماية للبشر، وان الحياء من الله هو مفتاح عظيم للخلق، وإن الله موجود فى كل فضائنا داخلنا وخارجنا ويرانا فى كل لحظة، وعليك فى ذلك باليقين، إنها أهم نقطة أن تستح من ربك، وإذا قابلتك مصيبة فاعلم أن الذنوب تزيل النعم، فكل ذنب يزيل نعمه، وما أكثر نعم الله، ونحن نبعثرها بالذنوب، والصبر على الاقتراب من الذنوب نعمة وتقرب إلى الله، فهل لك أن تتخيل ابنا أو بنتا، تعارض أو يعارض والدية، كيف ننظر إلى هذا الأمر، وما علاقة أن يعلو صوت ابن أو ابنه لوالديه، إنه ضعف عقيدة وضعف إيمان وقلة الحيلة على الصبر، كيف ذلك، إن المتأمل لأى منا حين أتى إلى الدنيا من التقاء بويضة بنطفة، وكيف أن الأم تحمل

وتغذى، هذا الجنين وكيف يجاهد الأب على إطعام الأم وهى تقوم بدورها بنقل الغذاء إلى الابن بل تعطيه من عظامها، وتظل فى إرضاعه وتظل فى تربيته، حتى يصل إلى مرحلة متقدمة، ثم يتعالى صوته إن كان ولدا أو تتعالى صوتها ان كانت بنتا، فإن كان لديه أو لديها العقيدة الحقة ما كان يفعل أو تفعل هذا.

إننا نعيش عصر الناقص و المنقوص فى العقيدة، والناقص من الصبر، فنقصت التربية واضمحل التعليم، وكلنا يتحمل ذلك سواء الأب أو الأم والمجتمع بكل مؤسساته، فنحن لا نملك الصبر لأننا لا نملك العقيدة الحقة، إنه ضعف الإيمان، وكلما ضعفت العقيدة ضعف الإيمان فتنهار جدران البشر وتتهاوى فى ملذاتها، حين يدركها الموت بغتة فتقول: يا ليتنى قدمت لحياتى. إننا نعيش عصر العبثية، عصر فوضى العقيدة والإيمان، فخلا الصبر من قوامنا وحل مكانه جذع اللذات فتسيبت الدماء وخرجت الحناجر لا تفقه أمرا ونُصِّبَ علينا جُهَلُ اللسان فقها، فصرنا كقطيع يعش ليأكل ويشرب، ولم نشكر من أعطى لنا هذه النعم، فلا صبرنا على نعمة ولا شكرنا عطاءه، إن قلة الحيلة فى الضعف هى من قلة الصبر، والصبر فى الطاعة من خزائن النعم.